تمهيد

منطلقات أدونيس فى التأسيس للإستراتيجية الشعرية

١) موقف أدونيس من النقد والنقاد

٢) موقف أدونيس من الشعرية الشفوية : معارضات أولى

٣) نقد الثابت فى القصيدة العربية التقليدية

١ - موقف أدونيس من النقد والنقاد:

ينطلق أدونيس فى حديثه عن النقد والنقاد، من مفهومه الخاص للشعر أو من واقع التجربة الشعرية التى عاشها، فهو لا يطمئن للنقد العربى القديم والجديد على حد سواء، ويتجلى ذلك فى رفضه للنمط التقليدى السائد من النقد؛ لأن ما يتطلبه هذا النمط غير شعرى بالمعنى العميق للكلمة، ويرى أن "لكل إبداع جديد تقويمًا جديدًا، ولكل رؤية فهمًا جديدًا"[١]. وإذا كان إدراك الشكل فى القصيدة القديمة لا يتطلب جهدًا فإن إدراكه فى القصيدة الجديدة يتطلب وعيًا شعريًا كبيرًا، فهو يتناول معرفة الأجزاء فى مادة القصيدة، وعلاقات هذه الأجزاء بعضها ببعض وائتلافها فيما بينها، والنقد لا يمكن له أن يكتفى بتفسير محتوى النص الذى ينقده، وإنما يجب أن يتناول فى الدرجة الأولى نظامه القولى، كأن: "القصيدة نص كتابى لا يمكن تقويمه أى نقده إلا انطلاقًا من تحليل بنيته التعبيرية وهذا التحليل لم يبدأ بعد، أى أن النقد الجديد الذى يرتفع إلى مستوى الشعر الجديد لم يبدأ بعد ـ باستثناء محاولات نادرة جدًّا"[٢]، ونشير هنا إلى تمييز أدونيس بين مستويين للنص الشعرى، هما محتوى النص ونظامه التعبيرى، وإلى حصره التماس معايير ثورية النص فى نظامه التعبيرى.

يريد أدونيس أن يواجه ثلاثة مستويات هى مستوى النظر أو الرؤية، مستوى بنية التعبير، مستوى اللغة الشعرية، مستخدمًا فى ذلك حسًا فنيًا متميزًا ويبدو ذلك جليًّا فى تحذيره من الرؤية الجزئية فى النقد، ويدعو إلى أن "يقيّم الشاعر، ليس بفكرة من الأفكار يجتزئها من نتاجه، وإنما برؤياه ككل ونظامه الفنى ككل، وعالم العلاقات التى يبتكرها"[٣]، أدونيس إذا هو ضد النظرة الجزئية للإبداع الشعرى،

وهى نظرة طالما كرستها الحركة النقدية القديمة، حيث تبارى النقاد قديمًا فى الحكم على شعرية النصوص، وذلك بالانطلاق من بيت أو بيتين، ومن دون تعليل، لذا نجد أدونيس قد ألح على إسقاط هذه النظرة التقليدية، مطالبًا فى الوقت نفسه بالنظر إلى رؤيا العمل الإبداعى ونظامه التعبيرى بصورة شمولية، صورة حولت القراءة النقدية من الحكم على الجملة الشعرية بالجودة أو الرداءة إلى الحكم على النص الشعرى فى صورته الكلية معتبرة إياه جملة كبرى أو جملة دنيا، وهو جوهر ما دعت إليه الدراسات النقدية الحديثة.

إن القصور الذى منيت به الحركة النقدية قديمًا وحديثًا ليس قصورًا فى النقد ذاته بقدر ما هو قصور ينبع من النقاد فى عدم توفرهم على طاقة الحس الفنى ، ونلحظ ذلك فى النقد المدرسى والجامعى، وفى هذا السياق يرى أدونيس " أن فهم الشعر كما يمارس على مستوى المؤسسات التربوية فى المدرسة والجامعة (...) ركامًا من المفهومات النقدية يتكدس حتى التعفن، انظر ثانيًا إلى فهمه كما يمارس على مستوى الحركة النقدية خارج هذه المؤسسات ماذا ترى؟ نقادًا لهم كتب وأسماء لامعة، لا يعرفون أحيانًا، أن يميزوا حتى بين قصيدة موزونة وأخرى بلا وزن (...) بسبب التغيير فى نسق الأسطر، أو بسبب الوقف أو البياض، فإذا كان فهم التغيير فى سطح الكتاب مغلقًا على هؤلاء، فكيف يمكنهم أن يغوصوا إلى أعماق القصيدة ويكشفوا أبعادها؟"(٤).

الأزمة النقدية بهذا التصور الآدونيسى هى أزمة معرفية بامتياز تكشف عن تقوقع النقد التقليدى ودورانه على نفسه، ومن دون إدراك لإرادة التغيير التى تمس النص الشعرى من حين لآخر، ولعل هذا ما جعل أدونيس ينادى بنقد جديد تنبع آلياته وشفراته من طبائع النص السحرية، وذلك بهدف تحقيق الانسجام بين الواقع الشعرى والواقع النقدى وما يرزحان فيه من تغيير وتمرد لإثبات وجود.

٢ - موقف أدونيس من الشعرية الشفوية : معارضات أولى.

وإذا كان النقد فى عمومه هو تصور ما عن الشعر، وما الشعر فى ذلك سوى صورة من هذه الصور، فإن أدونيس لم يكتف بنقد النقد والنقاد، بل تجده ينتقد مسار الشعرية العربية، فى اعتناقها للثابت حيث يشير - فى معرض حديثه عن صناعة الشعر- إلى المواءمة بين المعانى والبحور الشعرية، وهذا ما أدى إلى: قول يرى صلة أكيدة بين طبيعة المعانى وطبيعة الأعاريض الشعرية، فالمعانى الجادة أو الحـارة أو الجيـاشة، أو الساخنـة تلزم لتأديتها بحور طويلة، والمعانى الرقيقـة أو الهادئـة أو الماجنة، أو الراقصة تلزم لتأديبها على العكس، بحور قصيرة خفيفة، ومن هذه القيم القول بأن القافية يجب أن تكون عذبة الرنين حلوة النغم، خصوصًا أن القافية شريكة الوزن فى خاصية الشعر، إذ لا يسمى شعرًا إلا إذا كان بوزن وقافية معًا[٥]، ومنها القول بضرورة جمال الابتداء وجمال الانتهاء فى القصيدة، أى براعة الاستهلال والخاتمة، والحجة فى ذلك أن الابتداء هو أول ما يصل إلى السامع[٦]. هكذا قامت النظرة التقليدية للشعر، وهى نظرة أملتها الشفوية الجاهلية وهى نظـرة ضيقة ترى فى القصيدة نداء أو استجابة أو جدلاً ودعوة متبادلة بين أنا الشاعر ونحن الجماعة، كأن هناك توافقًا مسبقًا بين القصد الذى يدفع الشاعر الجاهلى لتأليف قصيدته، والقصد الذى يدفع الجماعة أو القبيل لسماعها، وهنا لا فارق بين الشعر والحياة، الحياة شعر، والشعر حياة، والإيقاع أساس القول الشعرى الجاهلى، وهو نبض الكائن فى مؤلفاته بين حركات النفس وحركات الجسم، والقافية هى جوهر ما دعت إليه الشفوية الجاهلية فى الشعر[٧]. بهذه الصورة أو الكيفية قدم أدونيس تصوره العام عن واقع الشعرية العربية فى ماضيها الجاهلى.

إن واقع الشعرية العربية القديمة لم يرض بال أدونيس، ويتضح ذلك فى تعليق أدونيس عن الخطاب النقدى القديم فهو خطاب حصر القول الشعرى فى قواعد نظمية معينة بدلاً من أن يظل حرًا، ومرتبطًا بالفاعلية الإبداعية، ونحن فى قراءتنا اليوم لماضينا الشعرى، علينا أن نرى غير ما رآه الخليل واللاحقون وحسب، وإنما

نرى ما غاب عنهم، نقرأ الفراغ والنقص الذى تركوه، لا سيما أن التقعيد والتقنين مع الطبيعة السحرية للغة الشعرية، وهى تظل دومًا فى حركية وتفجر، وهى البحث عن الذات والعودة إليها.

وفى قراءتنا هذه لا بد أن نقرأ الصمت، الذى تتفجر به الكلمات، إنها قراءة تلغى القراءة الأحادية، التى نادى بها الخطاب النقدى التقليدى. هكذا تتأسس شعرية القراءة عند أدونيس، قراءة تقرأ الثابت فى ماضيه الشفوى بروح المتحول فى حاضره النقدى لتؤسس لنص شعرى جديد ذى طبيعة حداثية قراءة تحاول تحديث القديم بآليات وبشفرات نقدية مستوحاة من مدارج التغيير، التغيير الذى مس جانبًا كبيرًا من الحياة فى صورتها المتأزمة، وما النص الشعرى – فى كل ذلك– إلا طاقة ابتكار حر بلا نهاية، ونور تدرك به التجليات أى أنه نور يمزق ستار الظلمة الذى يحجب السماء.

القراءة التى ينادى بها أدونيس هى قراءة التعدد لإثبات قراءة تقرأ الماضى فى ضوء الحاضر وبآليات جديدة، هذا النوع من القراءة فرضته الطبيعة الجديدة للنص الشعرى فى قيامه على خصائص كثيرة تعرف بها شعرية النص ومن هذه الخصائص، الغموض والفجائية والاختلاف والرؤيا والزمن فى انبجاسه وتفجره من الداخل، تمسك هذه المبادئ بعضها رقاب بعض فتصنع بذلك شعرية النص عند أدونيس، وتأتى خاصية الانفتاح، أو تعدد المعانى فى طليعة هذه الخصائص جميعًا، وهى تكشف عن الفضاء اللامحدود لعالم النص الشعرى من جهة، وتبرر إدراك أدونيس لصعوبة تحديد ماهية الشعر ومفهومه من جهة أخرى، وفى هذا السياق تتحول القراءة النقدية إلى لعبة من ألاعيب الجمال، وبذلك يرتدى النص الشعرى طاقية الإخفاء والمناعة الكافية للهروب من هذه الألاعيب والمطاردات إلى فضاء اللانهاية واللامحدود. إيمانًا من النص واحتسابًا منه، أنه مهما طال الزمن تبقى نظرة القارئ أو الناقد إلى أهرامات معانية مثل نظرة الإنسان العادى إلى المكعب فى تعدد وجوهه ومناحيه، وهذا ما ستكشف عنه المحطات التالية من هذا الكتاب.

٣ - نقد الثابت فى القصيدة العربية التقليدية:

غالبًا ما نجد أدونيس يوازن بين ماهية الشعر الحداثى (الجديد) وماهية الشعر القديم، وفى هذه الموازنة تتجلى المحاولات التأسيسية الأولى لمشروع الرؤيا الشعرية، فالشعر القديم يأخذ فى كتاباته النظرية عدة أسماء كـ "التنميط" و"الكتابة المحافظة" و"القصيدة المنغلقة". وفى مقابل ذلك نلفيه يعطى تسميات متنوعة للشعر الحداثى كـ: "الكتابة والتغيير" و"القصيدة المنفتحة".

إن التجديد فى منظور أدونيس لا يتم بالعودة إلى التقليد أو بالتلاؤم مع أشكاله الشعرية: التقليد ثبات والحياة حركة، فمن يبق فى التقليد، يبق خارج الحياة، والأمانة لأشكاله وأساليبه الشعرية نفى للشعر، وكم يتحتم على هذا التمرد أن يكون جذريًّا وفذًّا، فهو تخط للمفهوم الذى يرى فى الشعر العربى القديم وثيقة جمالية وأنموذج لكل شعر يأتى بعده أو مقياسًا له، ويفصّل أدونيس هذه الأسس فى النقاط التالية:

- **الناحية الفنية**: القصيدة العربية القديمة مجموعة أبيات، أى مجموعة وحدات مستقلة متكررة لا يربط بينها نظام داخلى، إنما تربط بينها القافية، وهى قائمة على الوزن والإيجاز لطابعها العام، وقد فسر هذا الشكل بسيطرة الروح القبلية عند العرب ...القصيدة العربية القديمة صناعة ومعانٍ، بينما الحديثة تجربة متميزة، والقديمة لغة ذوق عام وقواعد نحوية وبيانية، والحديثة لغة شخصية وجدة رؤيا. القصيدة القديمة قائمة على الوزن السهل، المحدد المفروض من الخارج، بينما تقوم القصيدة الحديثة على الإيقاع، والإيقاع نابع من الداخل، هناك شكل واحد فى القصيدة القديمة كلها، بينما لكل قصيدة حديثة شكلها الخاص.

- **الناحية اللغوية**: اللغة العربية شكل وجرس، فى الدرجة الأولى، إنها لغة فكرية وذهنية وليست لغة حياتية، ومن هنا ثبات أشكالها وتراكيبها. إن التعبير الشعرى جزء من الحالات النفسية والشعورية، والتعبير لغة، اللغة إذن كائن حى

يتجدد بتجدد هذه الحالات، ويعود جمال اللغة فى الشعر إلى نظام المفردات وعلاقاتها، بعضها بالبعض الآخر، وهو نظام لا يتحكم فيه النحو، بل الانفعال أو التجربة.

- **الناحية الحضارية**: إن تحرر الشاعر العربى الحديث من قيم الثبات فى الشعر واللغة، يستلزم تحرره أيضًا من هذه القيم فى الثقافة العربية كلها، ولعل هذا الثبات فى الشعر واللغة عائد إلى طبيعة هذه الثقافة بالذات...؛ لأن هذه الثقافة فى جوهرها، ثقافة دينية ذات بعد مدنى، أى أنها نشأت فى أحضان الدين وتحت راية الدولة التى تحميه وتحكم باسمه[٨]. هذه الآراء التى أطلقها أدونيس أصبحت فيما بعد ركائز أساسية لفكره، وعلى أسسها كتب شعره وثبت آراءه النظرية فى كتبه (زمن الشعر، الثابت والمتحول بأجزائه الثلاثة). يقول فى كتابه "زمن الشعر": "لعل خير ما نعرف به الشعر الجديد هو أنه رؤيا، والرؤيا بطبيعتها قفزة خارج المفهومات السائدة. هى إذن تغيير فى نظام الأشياء"[٩].

ويختصر أدونيس الفروق السالفة الذكر فى عبارات موجزة فيقول: "كان الإبداع لدى أسلافنا يقوم على انتقاء موضوعات فى حدود الوعى الإنسانى العام(...) غير أن موضوع الإبداع اليوم، بالنسبة إلى على الأقل، ليس أليفًا لدى الناس بل إن جوهره قد يبدو غريبًا عنهم أو عن معظمهم، كأنه يأتيهم من أعماق العصور أو من كوكب مجهول يطرح أمامهم تجربة تصدهم وتزعزع معطيات فهمهم وحساسيتهم"[١٠]، والفرق بين الكتابة الشعرية القديمة والحديثة هو فرق بين التعبير والخلق، والكتابة الطليعية لا تقدم جوابًا، ذلك أنها ليست طليعية إلا بكونها سؤالاً يقود إلى سؤال، وهذا السؤال لا يطرح على الماضى فحسب بل على المستقبل أيضًا، لا على الأجوبة وحسب بل على الأسئلة كذلك[١١].

وإذا كان الشعر القديم يلامس سطح العالم، ويقوم بعملية تجميلية لهذا الكون (العجيب) ويجتهد لإضفاء الكمال على الأشياء، فإن الشعر الحداثى ينفذ إلى هذه

الأشياء نفاذا عموديًا محولًا إياها إلى أسئلة ومن دون تزييف، وقد يعود ذلك إلى طريقة رصد الشاعر القديم للأشياء الخارجية بأمانة وصدق، دون القيام بعمليات انحرافية فى أثناء التعبير عن الأشياء الملتقطة، على عكس الشاعر الحداثى الذى تحول من الخارج إلى الداخل، من العوالم الخارجية إلى عوامل استبطان النفس، إذ يحاول "...أن يكتشف ويعرى ما لا يقدر بصرنا أن ينفذ إليه. يكاد معظم شعرنا العربى القديم أن يجهل دخيلاء الإنسان (...) ومن مهمة الشعر الجديد أن يجعلنا فى تماس دائم مع هذه الدخيلاء وهذه الصميمية"[١٢]، ويعمق أدونيس مدار الفرق بين ما تقوله القصيدة العربية القديمة وبينما تقوله القصيدة الحديثة فيقول: "كانت القصيدة القديمة تعبيرًا: تقول المعروف فى قالب جاهز ومعروف، فهى تعكس واقعًا وأفكارًا. القصيدة الحديثة (الطليعية) خلق: تقدم للقارئ ما لم يعرفه من قبل، فى بنية شكلية غير معروفة، وهى إذًا لا تعكس. وتلك هى الخاصية الجوهرية للشعر الحديث، إحلال لغة الخلق محل لغة التعبير"[١٣].

إن مسألة تقديم القصيدة لما لم يعرف من قبل فى بنية شكلية غير معروفة هو بالأساس نقد (لمضمون وشكل) القصيدة التقليدية وتأسيس لقصيدة الرؤيا، القصيدة التى لا تعرف شكلًا ثابتًا؛ لأن "الشكل الشعرى كالمضمون الشعرى يولد ولا يتبنى، يخلق ولا يكتسب يجدد ولا يورث، حين يكرر شاعر شكلاً كان فى زمن غير زمنه، لمشاعر غير مشاعره، وحياة غير حياته، لا يكون شاعرًا، يكون صانعًا"[١٤]، فالشكل الشعرى عند أدونيس هو الذى يظل فى تشكيل دائم وحركة وتغيير، إنه ولادة مستمرة.

وإذا كانت القصيدة القديمة تقوم على لعبة التشكيل، أى التزيين والتجميل الخارجى فهى عند أدونيس قصيدة مغلقة ومنتهية لانعدام الأبعاد الشعرية فيها، لذا نجده يرفض "... المتعلق المنتهى"[١٥]. إنها دعوة للتحرر من مثل هذه النصوص الإبداعية القائمة على أحادية الرؤيا والدلالة، والغوص فى أعماق "... القصيدة المنفتحة الزاخرة بممكنات تتفجر فى جميع الاتجاهات"[١٦]، إن هذا التفجير للممكن أو المحتمل هو الذى يضفى على القصيدة الشعرية ومبدعها صفة العظمة

"... فلا يمكن للشعر أن يكون عظيمًا إلا إذا لمحنا وراءه رؤيا للعالم"[١٧] وتبعًا لذلك يلغى أدونيس صفة العظمة عن الشعر الذى يهتم بالرؤية المشوهة الجزئية فى تركيزها على الحرث التافه الذى يقتل القصيدة ويحيلها إلى ماض مات، إنه الشعر- الأغنية، الشعر- الوقائع الصغيرة، الشعر – الوصف، كل ذلك نقيض للشعر بمعناه الجديد من حيث إنه لا يقوم على كلية التجربة الإنسانية [١٨]، ولم يتوقف أدونيس عند هذا الحد بل نجده يوازن بين وظيفة الشعر فى الإبداع القديم وبين وظيفته فى الإبداع الحديث فيقول: " كانت مهمة الشعر العربى فى النظرة التقليدية أن لا يلاحظ العالم فيستعيده، ويصفه، أما مهمته فى النظرة الحديثة فهى أن يعيد النظر أصلاً فى هذا العالم، أن يبدله أن يخلق رؤيا ويرتاد ويجدد"[١٩].

هذه الموازنة التى صاغها أدونيس تبين خصائص كل نظرة وكل وظيفة، فالنظرة التقليدية تقوم أساسًا على قبول العالم كما هو، ومن ثم فإن وظيفة الشعر فى هذه النظرة هى استعادته ووصفه ومحاكاته لا غير، والإبقاء على صورته فى حين أن النظرة الحديثة تنبنى أساسًا على رفض العالم وإعادة النظر فيه جذريًا، وخلق عالم مغاير وجديد، عالم البحث والتساؤل.

وما نستشفه بعد هذا العرض السريع لبعض الفروق الجوهرية بين الإبداع القديم وبين الإبداع الحديث هو أن مقولة: "الرؤيا الشعرية" هى المقولة المركزية والمحك الأساسى فى التمييز بين العالمين، ويمتد هذا التمييز ليلف بجناحه وظيفة كليهما؛ ذلك لأن خلق عالم جديد يعنى عند أدونيس البدء بخلق رؤيا جديدة ومغايرة أى خلق رؤيا جديدة للعالم والإنسان، ولعل غياب تجليات الشعرية بمحدداتها الحداثية فى موروثنا الشعرى هو الذى جعل أدونيس يقلل من شأن الشعر القديم داعيًا إلى انفتاحه على الأفق الذى انفتحت عليه التجربة الشعرية الحداثية بفظاءاتها الجمالية السابحة فى فضاء الغموض والفجائية والاختلاف وما إلى ذلك من المحددات الأخرى.